تقديم وتعريف

عايدة الشريف وأيام من البهجة

بقلم: د. محمود محمد الطناحى

أىّ رجل كان محمود محمد شاكر[1] ؟ وأى مجلس كان مجلسه؟ وأى أُنسٍ كان يشيع فى هذا المجلس، وأى علمٍ كان يتفجّر فى رحابه؟ .

وللناس أن يتكلموا عن علم محمود شاكر ما شاء الله لهم أن يتكلموا، ولكن الحديث عن مجلسه مما ينبغى الوقوف عنده وتأمله. لقد قلت فى بعض ماكتبت إنه لم يحظ أحد من أدباء هذا الجيل بمعشار ما حظى به محمود شاكر من حبّه والالتفاف حوله والأخذ عنه والتأثر به:

لقد كنت فى قومٍ عليك أشحّةً
بنفسك إلا أنَّ ما طاح طائح
يودُّون لو خاطوا عليك جلودهم
ولا تدفع الموت النفوس الشحائح

---

(١) فاضت روحه الطاهرة إلى بارئها، في تمام الساعة الخامسة من عصر يوم الخميس ٣ من ربيع الآخر ١٤١٨ هـ، الموافق ٧ من أغسطس ١٩٩٧م، فترك في القلوب حسرة لا تنقضي، وأودع العيون دمعة لا تجف، رحمه الله ورضي عنه .

طوائف من الناس من مختلف البلدان والأعمار والانتماءات ضمهم ذلك البيت[1] المفتوح دائما، والذى خلا من الرسميات والدعوات المضروبة من قبل. يقول الأستاذ فتحى رضوان، فى وصف ذلك البيت الشاكرى:

«كان بيته ندوة متصلة لا تنفض، من أعضائها الثابتين: يحيى حقى، إذا حضر من أوربا، وعبدالرحمن بدوى، وحسين ذو الفقار صبرى، وغيرهم وغيرهم، ولم يكن حظى أن أكون عضوا دائما فيها، فقد كنت ألم بهم أحيانا، فأراهم وأرى من العالم العربى كله، ومن العالم الإسلامى على ترامية، شخصيات لا حصر لها، تتباين بعضها عن بعض، فى الزىّ والمظهر والثقافة واللهجة، والشواغل والمطامح، ولكنها تلتقى كلها عند محمود شاكر، تسمع له، وتأخذ عنه، وتقرأ عليه، وتتأثر به، وكلما كان من حظى أن أشهد جانبا من هذه الندوة، أحسست بسعادة غامرة أن يبقى ركن فى بلدى كهذا الركن، ينقطع أصحابه للفكر والدرس والتحدث فى أمور لا تجد من يسمع بها، أو يعرف عنها شيئا فى مكان آخر».

وإذا كان الأستاذ فتحى رضوان قد ذكر من عرفهم من أعلام الفكر والأدب الذى كانوا يختلفون إلى بيت محمود شاكر، فإنى ذاكر أيضا من عرفتهم فى هذا المجلس الحاشد، على امتداد الستينات والسبعينات:

---

(١) يسميه الدكتور إحسان عباس: كعبة العلم. انظر جريدة الدستور الأردنية بتاريخ ١٩٩٣/١/٢٢.

عبدالرحمن صدقى وعلى أدهم، ومحمود حسن اسماعيل، وعلى أحمد باكثير. ومن أعلام العرب: أحمد المانع وناصر الدين الأسد وأحمد راتب النفاخ وإحسان عباس وشاكر الفحام وإحسان النص ومحمد يوسف نجم وإبراهيم شبوح، واسماعيل الأكوع، ومحمد بن شريفة وعبدالسلام الهراس والحبيب اللمسى وعبدالله الغنيم. ومع هؤلاء الأعلام يتسع المجلس أيضا لصغار الطلبة والمعيدين.

ولقد يجتمع الناس فى ندوة أديب من الأدباء، ثم تنفض الندوة وينفرط عقدها، ويذهب كل فى طريق. ولكن مجلس محمود شاكر يختلف عن غيره من المجالس، بما يشيع فيه من أُنس وود وبهجة، وماتنعقد فيه من صداقات عذبة حميمة، يغذيها وينميها صاحب المجلس، أما المناقشات العلمية والمحاورات الأدبية فلكل أمرىء منها حظ مقسوم، لاينفرد بها صاحب الدار، ولايستبد بها الكبار، فالكل فى هذا المجلس سواء، والكل يتكلم ويشارك، ولم يكن صاحب المجلس يرتاح للأحاديث الجانبية أو ثنائية الحوار، فما يكاد يرى أثنين يتحدثان منفردين حتى يتدخل قائلا:

انتو بتقولوا إيه؟» يريد أن يقطع عليهما طريق الانفراد، ولا شك أنه كان يصدر فى هذا من وحى الحديث الشريف الذى رواه البخارى ومسلم وغيرهما: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر - حتى تختلطوا بالناس - من أجل أن يحزنه».

بل إن مائدة الجمعة، والموائد الأخرى الحافلة، كيوم عاشوراءٍ الذى

كان يوافق مولد صاحب الدار بالتاريخ الهجرى: هذه الموائد كانت تجمع إلى أهل الأدب والفكر بعض أهل الحِرف والصناعات الذين لهم بالبيت وصاحبه صلة وتاريخ، مثل المجلِّد والنجار والحلاق . ومن طريف مايسجل هنا ما ذكره لى أبو فهر - رحمه الله - قال: فى يوم جمعة من الأيام الأولى لثورة يوليو كان يجلس على مائدة الغداء: محمود رشاد مهنا وحسين ذو الفقار صبرى والشيخ أحمد حسن الباقورى ومحمد فؤاد جلال - وكل هؤلاء من الوزراء وكبار المسئولين فى ذلك الوقت - وكان يجلس أيضا على المائدة الأوسطى أنور الحلاق. وفى اليوم التالى اتصل بى الشيخ الباقورى وقال لى: إن محمد فؤاد جلال - وكان وزيرا للشئون الاجتماعية - غاضب من وجود الأوسطى أنور الحلاق معنا على المائدة. وفى الجمعة التالية قلت لمحمد فؤاد جلال: اسمع يافؤاد أنت وزير فى مجلس الوزراء، ولكنك فى بيتى واحد من الناس، تستوى أنت والأوسطى أنور وسواكما من عباد الله!



دلفت عايدة الشريف إلى هذا المجلس الشاكرى فى عام ١٩٧١، وسرعان ما توثقت صلتها بالأسرة، فأدّت معهم وبصحبتهم فريضة الحج عام ١٩٧٢.

وقد دخلت عايدة الشريف مجلس محمود شاكر ومعها هذا القدر الهائل من الهيبة والخشية والحذر، من تلك الحدة المزعومة فى شخصية محمود شاكر، وهو شعور عرفناه جميعا حين دخلنا بيته لأول مرة،

وحين توثقت صلتنا بالشيخ اكتشفنا زيف هذا الشعور، وكذب تلك المزاعم التى أشاعها بعض خلق الله ليصدوا الناس عنه، وإذا نحن أمام قلب طاهر نقى، يغضب ويثور حين يرى حداً من حدود العلم قد انتهك، ولكنه قريب الرضا ميسور الصفاء، وقد وصفته فى بعض ما كتبت بأنك تراه فى حال غضبه ثائرا فائرا، كسماء مرعدة مبرقة، فإذا ألقت سماؤه بأمطارها، عاد كنسمة هادئة فى إثر ماء طهور، وإذا الذى بينه وبينه عداوة كأنه ولى حميم، ومن الظواهر التى كنا نشاهدها كثيرا أنه يختلف مع أحدهم اختلافا شديدا، يرتفع معه صوته، وتتقاذف كلماته كالسهام الملتهبة؛، وحين يودّعه على باب المصعد يقول له: ابقى تعال الجمعة الجاية».



أصبحت عايدة الشريف عضوا دائما فى لقاء الجمعة منذ عادت من الحج مع الأسرة الشاكرية عام ١٩٧٢، وكانت عايدة فى ذلك الزمان موفورة النشاط متوثبة الحركة، مثيرة للجدل والحوار، وكانت لديها قدرة عجيبة على استخراج ما عند الأدباء واستثارة دفين ذكرياتهم، كهذا الذى كانت تستخرجه من عبدالرحمن صدقى ويحيى حقى، من حديث عن تاريخ الأوبرا، وحديث الرواية والقصة، وعطر الأحياء الشعبية الذى كان يفوح من قارورة يحيى حقى. وكان مثل هذا الحديث مما يستجم به الحضور شيئا ما من حديث اللغة والشعر الذى كان يصول فيه شيخنا ويجول، وكنا نحن التراثيين سعداء جدا بما كانت تمدنا به عايدة من

أخبار المسرح والسينما وشجون أهل الفن، ثم ذكرياتها الصادقة والدقيقة مع نجيب محفوظ، وقد عملت معه زمانا فى مؤسسة السينما، وعرفت من خاصة أمره ودقائق حياته ما لايعرفه كثير من المقربين اليه، وكانت حُجة فى هذا الجانب، كما كانت حجة فى أخبار الدكتور محمد مندور، وقد تتلمذت عليه فى معهد الفنون المسرحية، ولازمته كثيرا، وقد ضمنت ذلك كله فى كتابها الممتع: شاهدة ربع قرن.

لكن الغريب فى أمر عايدة أنها كانت مأخوذة جدا بما تسمعه من قضايا اللغة والشعر وسائر فنون التراث التى كان يموج بها مجلس محمود شاكر، وكانت تستشرف إلى معرفة ذلك العالم العجيب الرحب، عالم التراث، بل إنها - وقد شدتها سخونة الحوار فى هذه القضايا - صرّحت لى بأنها كانت تود أن تسلك ذلك الطريق التراثى من أول أمرها، وأنها لو أتيح لها مثل هذا المجلس فى مبتدأ حياتها لما رضيت به بديلا، وكنت أقول لها: إنك قد اخترت طريق الشهرة والأضواء، مع الفن وأهله، أما نحن التراثيين ففى ركن قصى من الخريطة الثقافية فى هذا الزمان، وأننا نغدو ونروح يحدّث بعضنا بعضا، لايشعر بنا أحد، وعلى من يسلك طريقنا أن يصبر على العزلة والوحشة، كما قال على بن أبى طالب رضى الله عنه «من أحبنا أهل البيت فَلْيُعِدَّ للفقر جلبابا»، فكانت تقول: لا والله، إن طريقكم يا أهل التراث هو الطريق الصحيح، إنكم تتحدثون فى أشياء كبيرة لا يطيقها إلا أصحاب الجباه العالية، ولا يغرنك مانحن فيه من شهرة وذيوع وأضواء، فهو سراب

خادع وبرق خلَّب (وكانت تقول: على فكرة، خلب دى سمعتها فى مجلسكم فقط).

أخذت عايدة تتردد على البيت الشاكرى، والتحمت به التحاما شديدا، وبخاصة بعد عودتها من الكويت واستقرارها بالقاهرة، وحين داهمها المرض فى أعوامها الأخيرة لم تجد أرحب من هذا البيت وأكرم، تلوذ به وتلجأ إليه فتجد فى رحابه من مظاهر الكرم ومباهج العلم ما يؤنس وحدتها، ويخفف من آلامها.

وقد بدا لعايدة أن تكتب شيئا عن حياة محمود شاكر ومجلسه، وقد سبق لها شىء من ذلك فيما كتبته فى بعض صحف الخليج، ولكنها أرادت أن توسِّع الخطى، وتجمع أطراف الكلام، ولقد استعظمت الطريق واستطالته فى أول الأمر، وكادت تنصرف عنه، ولكنها عادت فاقتحمت الميدان بجسارة وشجاعة، وأخذت تجمع من هنا وتلملم من هناك، تضم الشبيه إلى الشبيه، وتقرن النظير بالنظير، تنشط حينا وتفتر أحيانا، وقد عملت وحدها، لم يُعنها أحد، حتى صاحب الدار لم يكن يكشف لها عما كانت تريده من سيرة حياته وتقلبه فى العالمين، وكان هذا دأبه وعادته، لم يكن يحب أن يتحدث عن نفسه.

★★★

كتبت عايدة عن محمود شاكر ما شاء الله لها أن تكتب: حياته وعلمه وخاصة أمره، لكن غالب ما كتبته إنما هو ذكريات متناثرة وخواطر متفرقة، كانت تريد أن تعود إليها بالتحرير والتنقيح، حتى عاجلتها المنية ، وليس لما أراد الله راد ولا دافع.

وهذا الذى كتبته (١) عايدة الشريف عن محمود شاكر - مهما يكن رأيك فى مفرداته وصياغته - كان يجب أن يكتبه قرناؤه الذين عرفوه فى فتوته وشبابه، وتلاميذه الذين أفادوا منه فى قوته وعنفوانه، لكن لا هؤلاء كتبوا، ولا أولئك أشاروا، إلا ما كان من صديق عمره ورفيق حياته يحيى حقى، الذى مافتىء يذكر فضل محمود شاكر عليه، وانه هو الذى أذاقه حلاوة العربية، ووقفه على أسرارها ودقائقها (٢)

وكان من أعجب العجب ألا تجد لهذا الرجل الضخم ذكرا إلا فى مقدمات بعض الكتب أو الرسائل الجامعية، شكرا مصنوعا متكلفا، يريد به صاحبه أن يرفع خسيسة، لا أن يذكر علما، لكن محمود شاكر سيظل أثرا ضخما باقيا فى ضمير هذه الأمة: حراسة للعربية، وذوداً عنها، وبصرا بها، وإضاءة لها.

---

(١) إكتشف شقيقها الكاتب الصحفى يوسف الشريف بعد رحيلها يوم ٣ أبريل ١٩٩٧ أنها خلفت وراءها كتاباً جاهزاً للنشر عن الأستاذ محمود شاكر كانت قد إستكملت سطورة قبل رحيلها بثلاثة شهور.

(٢) للحق والتاريخ أقول: إن كاتب هذا المقال، الفقير محمود محمد الطناحي، من أكثر الناس كتابة عن ذلك الإمام محمود محمد شاكر، ومن ذلك: كتابي مدخل إلي تاريخ نشر التراث العربي، من ص ١٠٣ إلي ١٢١، و: المتنبي. موسوعة عصر التنوير التي أصدرتها دار الهلال بعنوان: أهم مائة كتاب في مائة عام - سنة ١٩٩٢، و: محمود محمد شاكر ومنهجه في تحقيق التراث - مجلة الهلال - فبراير ١٩٩٧، ثم مانثرته فيما دق وجل من كتاباتي وتحقيقاتي.

ثم أشير هنا الي رسالتي ماجستير عن الشيخ: الأول بكلية دار العلوم للباحث محمود إبراهيم الرضواني، بعنوان: أبوفهر محمود محمد شاكر بين الدرس الأدبي والتحقيق. وطبعت بمطبعة الخانجي عام ١٩٩٥، والثانية للباحث عمر حسن القيام بكلية الآداب - جامعة اليرموك - الأردن، بعنوان: محمود محمد شاكر، الرجل والمنهج، وطبعت بمطبعة دار البشير ومؤسسة الرسالة بالأدرن عام ١٩٩٧.

إن أحق ما يقال عن محمود شاكر هنا وفى كل مكان هو ما قاله عن أستاذه مصطفى صادق الرافعى، بأن الرافعى «قد صار ميراثا نتوارثه، وأدبا نتدارسه، وحنانا نأوى اليه» (١)

وكذلك ينبغى أن يكون محمود شاكر «ميراثا نتوارثه، وأدبا نتدارسه، وحنانا نأوى إليه».

رحم الله محمود محمد شاكر، ورحم الله عايدة الشريف. وإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

---

(١) هذا أثر من آثار ثقافة الشيخ العربية الإسلامية، فقد جاء هذا اللفظ في خبر ورقة بن نوفل، وقد مر ببلال بن رباح وهو يعذب فقال: والله لئن قتلتموه لأتخذنه حنانا، قال ابن الاثير: الحنان: الرحمة والعطف، والحنان: الرزق والبركة، أراد: لأجعلنّ قبره موضع حنان، أي مظنة من رحمة الله، فأتمسح به متبركا، كما يتمسح بقبور الصالحين الذين قتلوا في سبيل الله من الأمم الماضية. النهاية في غريب الحديث والأثر ١/٤٥٢، والسيرة النبوية لابن هشام ١/٤١٨.